جـ- مسوغات اللجوء إلى الخيال في السرد الأتوبيوغرافي:

إنَّ التجاء المؤلف إلى التخييل وهو يسترجع تجربته الذاتية ليس أمراً تلقائيا غير مقصود، وإنَّما يكون الكاتب مدفوعا إليه بأسباب كثيرة منها ما هو نفسي، ومنها ما هو موضوعي بالنسبة للمؤلف، فضلا عن السبب الفني بطبيعة الحال:

جـ- 1- الخيال تحرّر من قمع سلطات متعددة:

إنَّ الرؤيـة المعياريـة لجـنس السـيرة الذاتيـة تحـدّ مـن حريـة الكاتـب وتجعلـه يقـع تحـت وطـأة الأحكـام الـتي تصـادر أفعالـه ومـا كشـف عنـه في سـيرته، لـذلك يجـد المؤلـف نفسـه محاصـرا إلى حـدٍّ كبـير بمحدوديـة الكشـف عـن ذاتـه وتعريتهـا في ظـل هـذه الرقابـة الـتي تمارسـها السـلطات السياسـية والأبويـة والمجتمعيـة ،ومـا يترتـب عنهـا مـن قمـع مباشـر وغـير مباشـر، لهـذا « تبـدو كتـب السـيرة الروائيـة وحـتى الروايـة، أكثـر جـرأة في إنتـاج هـذه المعرفـة ووضـعها عاريـة...» [1]، وذلـك مـن خـلال مـا تتيحـه لصـاحبها مـن مسـاحة للتخييـل هـي فرصـة للتعـري والمكاشـفة وترجمـة أغـوار الذات بالقدر الذي يريده المؤلف من البوح والاعتراف والتطهير.

ومـن أمثلـة النصـوص الـتي كـان الخيـال فيهـا مطيَّـة للانطـلاق والتحـرر مـن قمـع سـلطة الأب والمجتمـع الـذي يـرفض الحـديث عـن أخطائـه مهمـا كانـت كبـيرة، نـص "بقايـا صـور" الـذي تحـدث فيـه حنـا مينـة « بجـرأة نـادرة عـن أبيـه ومـا مارسـه مـن قمـع واسـتهتار بحـق أمـه وبحـق عائلتـه، ومسـتوى السـقوط المخجـل الـذي وصـل إليه»[2] .

إنَّ المؤلـف يعـزو في سـيرته الذاتيـة التشـرد والضـياع اللـذين عاشـتهما أسـرة بأكملهـا إلى عجـز الأب وتقصـيره في حمايـة هـذه الأسـرة ،لأنَّـه كـان أسـير أهوائـه وإدمانـه، إنَّـه « يشـرب حيثمـا تسـنَّى لـه، ويسـكر كلمـا شـرب، وينـام في أي مكـان،

ولـــو في الفـــلاة أو الخمـــارة تاركـــا نفســـه ومـــا معـــه لرحمـــة المـــارة والعـــابثين والمخمورين»[1].

إنَّ المؤلـف إذا اتخـذ مـن الروايـة قالبـا يصـب فيـه سـيرة حياتـه، فإنـه يتخـذ بـذلك حجابـا يمنـع عنـه قمـع الآخـر في وصـف الأب مهمـا كـان سـيئا بهـذه الجـرأة ،مؤكـدا علـى هـذا الوصـف مـراراً حـتى نكـاد نجـزم أن حنـا مينـة كتـب ترجمتـه الذاتيـة مـدفوعا فقـط بعقـدة الإحسـاس بقمـع الأب، محمِّـلا إيّـاه كـل الانكسـارات والمآسـي الـتي عاشـها وأسـرته، إذ يقـول:«... كأنّمـا هـذه الأحـداث القاسـية قـد حفـرت بسـكين الشـقاء المتصـل لأسـرة يعصـف بهـا الإعصـار مـن كـل جانـب، وهـي تـدور في الدوامـة الزوبعيـة، كسـفينة شـراعية قطعـت مرسـاتها، وانكسـرت دفتهـا، فتخبطـت في المـوج العاصـف بغـير قيـادة، أو بوجـود قيـادة مـع ربّـان غـير مؤهـل لأن يكـون ربانـا، أو أنـه لا يبـالي أن يكـون، لأنـه حـرم مزيـة التقـدير والتـدبير، ولم يحـس أنـه يحمـل مسـؤوليتها أساسـا (يشـير إلى قصـور الأب). أنـا لا أزعـم أن سـفينة عائلتنـا وحـدها الـتي عرفـت هـذا التخـبط في لجّـة بحـر الفقـر الكبـير، ولكنهـا، بسـبب لا مبـالاة ربانهـا، كانـت أشـدها اضـطرابا في مصـطرع النـوء وأسـرعها ضـياعا في اللّجّـة، وقـد ضـاعت فعلا...»[2].

إنَّ توظيـف الخيـال في روايـة السـيرة الذاتيـة لا يكـون بهـدف التشـكيل السـردي فقـط، وإنّمـا يتوسـل بـه المؤلـف لإبـداء رأيـه وتقييمـه الخـاص لمعطيـات كثـيرة في حياتـه، وخاصـة إذا أعوزتـه الجـرأة علـى تنـاول موضـوعات ظلـت "طـابو" في مجتمعاتنـا كالسياسـة والـدين والجـنس. كمـا فعـل محمـد شـكري في "الخبـز الحـافي" حـين تجـرأ في سـياق الكتابـة الروائيـة « بشـكل نـادر علـى سـرد سـيرته ومـا غـرق فيـه

جـ- 2- الخيال ملاذ المؤلف لتجاوز ما لا يريد قوله عن نفسه:

إن المؤلف لا يعاني رقابة السلطة القمعية فحسب، بل تعدُّ الرقابة الذاتية سلطة أشد وطأة عليه في كثير من الأحيان، ذلك « أنَّ بعض الكتاب يتعمدون الإخفاء عن قصد نتيجة الرقابة الذاتية أو خوفا من رقابة الآخر»[1].

إنَّ إخفاء بعض الحقائق يدفع إلى الاستعاضة عنها بما تتيحه عملية التخييل من أحداث وأوصاف وتصرفات تضمن لصاحب الرواية الأوتوبيوغرافية الحد الأدنى من احترام وإعجاب المتلقي. وبهذا التمازج الحاصل بين الحقيقي والمتخيل يصعب التمييز من أين يبدأ واقع حياة الفرد؟ وأين ينتهي؟، وأين يبدأ المتخيل وأين ينتهي؟، لهذا فالنص الأوتوبيوغرافي «يسير وفق نظام الاتصال/ الانفصال، الاتصال بالواقع ثم الانفصال عنه»[2].

وكثيرة هي النصوص التي يلتجئ فيها الكاتب إلى المتخيل لهذا السبب، ولكن تمييزه آمر ليس سهل المنال يحتاج إلى بحث أعمق وقراءة أكثر تخصصا . والراجح أن الكاتب يمارس الرقابة الذاتية على نفسه في المواضيع المحرجة عادة، ويرى محمد معتصم أنَّ «من المواضيع الحرجة في كتابة السيرة الذاتية لدى الكتاب العرب موضوع "الجنس" لأنها من المناطق المحرمة والمخلة بالآداب والمفسدة للذوق والمحرفة لسلوك الشباب... ولنا في هذا الباب شواهد عديدة تعرض فيها أصحابها للحبس، والتكفير، وتعرض الكتب من التداول. ومحمد شكري من المغرب نموذج صارخ، في سيرته الروائية "الخبز الحافي"...»[3] ومحمد شكري وغيره ممن لا يقعون تحت وطأة الرادع الأخلاقي والاجتماعي، ربما لقناعتهم بأنَّ من واجب الكاتب

جـ- 3- الخوف من مغبة الوقوع في سرد حقائق لا تسر الآخرين:

استند نجيب محفوظ إلى هذا السبب في رفضه كتابة سيرته الذاتية إذ رأى أن التورط في ذكر ما لا يحب الآخرون أن يذكر عنهم من أهم العوائق أمام انجاز سيرته الذاتية بالشكل الصريح، وقد أوردنا قوله الذي يذكر فيه سبب تقاعسه عن التصريح بسيرة ذاتية مكتملة إضافة إلى توضيحه أكثر بقوله:«... واذكر أن عبد الحميد جودة السحار كتب مرة عن أسرته ومدح أخاه، ولكنه مسه بشيء من البخل، فقاطعه أخوه، وقامت بينهما خصومة امتدت لفترة من الزمن، مع أنه كان حريصا على أسرته وكأنه يقدم أفرادها لأغراب أو لعيون فضولية معادية، ومع هذا لم يعفه الخوض من الخناقة»[1].

وقد كان نجيب صريحا أكثر عندما قال:« وثمة سبب آخر خاص بي، وهو أني من أسرة من المعمرين، كل أفرادها أحياء، وليس من حقك أن تكتب عنهم وهم أحياء...وأن تتناول بعض الأمور الجوهرية في حياتهم وهم أحياء»[2]. لهذا السبب يحاول نجيب محفوظ التمويه بأكبر قدر ممكن من الخيال الروائي على جوانب من حياته تضمنتها نصوصه ولكن الغوص الكاشف[*] في أعماله الروائية يمكننا من قراءة محطات من سيرته الذاتية الممزوجة بقدر كبير من المتخيل الذي يهيمن على نصوصه، فنكاد لا نعثر على الواقع الملتبس بالخيال.

جـ- 4- الخيال يحقق للمؤلف ما تمنى أن يكون عليه، لا ما كان بالفعل:

إنَّ متن النص السير ذاتي مرتبط في أصوله وموارده بالواقع الحاصل فعلا، ولكنه أحيانا ينصهر في منظومة التخيل الروائية، خاصة إذا كان المؤلف يتأرجح بين الوقائع والأماني التي كان يرغب في أن يعيشها، ويوضح عبد الله إبراهيم انصراف المؤلف إلى المتخيل ليحقق من خلاله الأفعال المؤجلة التي كان يرغب في القيام بها لولا الموانع والحواجز وذلك بقراءة عميقة لنص "خلسات الكرى" لجمال الغيطاني، فهذه السيرة الذاتية «شحنت بالتخيل الذي لا يقطعها عن أصلها. إذ يعيد الغيطاني ترتيب علاقته بالمرأة مكتفيا في الغالب بالوصف وملذاته، وتؤرقه الأفعال المؤجلة، فيتمزق الراوي المؤلف بين ما تحقق، وما كان ينبغي تحقيقه، ومحور مدونته كما يقول: أن يقص ما تمنى أن يكون لا ما كان بالفعل، وهو مورد تفاصيل رؤيته وتوقعاته»[1].

إننا نجد المؤلف أحيانا لا يسعى إلى إنشاء نص محكوم بوحدة الوقائع وأطرها الزمانية والمكانية بقدر حرصه على إعادة صوغ تجربته الذاتية عن طريق تدفق التخيل السردي الذي يجمع بين الوقائع والرغبات والأماني والتوقعات محققا بذلك عالما افتراضيا يطمح أن يعيش فيه، وهذا ما نجده أيضا عند إدوارد سعيد الذي قام « بتشكيل وتخييل عالمه منذ نعومة أظفاره ...عالم يطمح في بنائه أن يكون مغايرا ومميزا في آن واحد»[2]، إنه عالم حكائي(متخيل) يهرب إليه

جـ- 5- الخيال إضافة فنية في النص الاتوبيوغرافي:

إنَّ مهمة التخييل لا تقتصر على تعويض النقص الذي تتسبب فيه الذاكرة نظرا لقدرتها المحدودة على الاسترجاع، ولا على ابتداع أحداث جديدة غير موجودة أصلا في تاريخ الشخصية، ولا على سد الثغرات التي يحدثها النسيان في السرد، وإنما يؤدّي الخيال أيضا وظيفة فنية في النص، وفي ذلك عود إلى الأصل فيه. إذ عُرف التخييل في البدء بالتصوير وما يترتب عنه من جماليات بلاغية. وعليه فإنَّ ما يمكن في الجانب التوثيقي من متعة أدبية لا يشكل وحده المستوى الجمالي في النص السير ذاتي، إذ « ثمة مظهر آخر يساهم هو أيضا في تغليب كفة الإمتاع الفني، وهو التخييل...» [1].

إنَّ الكتابة التي تعتمد الذات مرجعية لها كثيرا ما يقف فيها الكاتب حائرا أمام صمت التوثيق وصمت الذات (الشخصية) حيال أحداث ومواقف مهمة، لذلك يتحرك الخيال، ويفعل بالشكل اللائق بالتجربة ليمنحها حركية وفاعلية، ويعمق الإحساس لدى القارئ بواقعية الحدث، وهو بذلك يؤدي وظيفة فنية تخدم طبيعة هذا النوع الأدبي، يقول عبد الله إبراهيم:«...ما يلاحظ أن درجة التخيل تؤدي وظيفة فنية لصالح الجانب الوثائقي السيري مع أنها مستعارة لتؤدي وظيفة مضادَّة » [2].

إنَّ الخيال إذن يوظّف في التجربة الذاتية بوصفه مكونا فنّيا يمتزج مع الأصل الواقعي لهذه التجربة، وفي انصهارها يتحقق جنس أدبي يشكل الضدان فيه أعلى مستويات الاتفاق والانسجام.